حرب الكونغو الأهلية 'الدولية'

07-8-2003

وحتى إن بدا أن أسباب هذه الحرب الأهلية معقدة، فإن المحفز الأساسي الآخر، كان رفع الدعم الأمريكي عن موبوتو ومغادرته النهائية. ولأن الكونغو الديمقراطية غنية بالمعادن،

عندما نالت الكونغو استقلالها من بلجيكا في 1960 عملت القليل للتحسين من حياة أولئك الذين يعيشون في ما يُعرف اليوم بـ"جمهورية الكونغو الديموقراطية"(DRC). حرب أهلية قصيرة، تلتها حكومة انتقالية، فسحت المجال في 1965 ليوسف موبوتو لرئاسة البلد مدعوما من قبل الولايات المتحدة. موبوتو حكم لفترة امتدت إلى 32 سنة استشرى فيها الفساد. بعد مغادرته في 1997، تولى من بعده زعيم آخر مدعوم من أمريكا، لورنت كابيلا، الذي فقد الحظوة بسرعة مع الولايات المتحدة ليجد نفسه وسط حرب أهلية في 1998، لم تضع أوزارها إلا من أشهر قليلة، وهو ما يرشحها لأن تتصدر قائمة أخطر النزاعات المحلية منذ الحرب العالمية الثانية.

وأحد جذور هذه الحرب تمتد إلى ما وراء حدود الكونغو الديمقراطية، في رواندا. حيث تعرضت رواندا في 1994، لحوادث الإبادة الجماعية التي وصلت شظاياها إلى الكونغو، إذ حاول اللاجئون الوصول إلى ملجأ آمن لكن بدون جدوى حيث تعقبهم مجرمو القتل الجماعي. وكان أحد مؤيدي مذبحة رواندا لمواطني قبيلة توتسي هو لورنت كابيلا!. فهذا الأخير احتضن مهندسو الإبادة الجماعية ودمجهم مع جيشه ومقاتليه، واستمر في الإنشغال والتدخل في شؤون رواندا في محاولة لإزاحة الحكومة هناك التي يقودها التوتسي. رواندا من جانبها، رفضت التدخل في مشاكلها العرقية الداخلية، وأدى هذا إلى نزوح جماهيري واسع إلى جمهورية الكونغو الديمقراطية. أثناء الحرب الأهلية لهذه الأخيرة، تعقبت حكومة رواندا هؤلاء اللاجئين وأعادتهم إلى الكونغو الديمقراطية، بدعوى أنهم وجدوا في كابيلا حليفا!.

وحتى إن بدا أن أسباب هذه الحرب الأهلية معقدة، فإن المحفز الأساسي الآخر، كان رفع الدعم الأمريكي عن موبوتو ومغادرته النهائية. ولأن الكونغو الديمقراطية غنية بالمعادن، فإن هذا أغرى – في غياب رجل أمريكا القوي موبوتو - مجموعات منافسة ظهرت بشكل كبير على طول الخطوط العرقية، لجني وتكديس حصتها من الثروة. وإجمالا، أكثر من ثلاثين مجموعة ثائرة قاتلت بعضها البعض، بينما كانت الحكومة الإتحادية تراهن على كسب حرب الولاءات.

وقد استمرت الحرب خمس سنوات تقريبا، وتوصل مسعروها إلى الاتفاق على هدنة "صلبة" في أبريل 2003، وهذا بسبب إصرار (إلى حد كبير) الرئيس يوسف كابيلا، تبني ابن لورنت كابيلا الذي اغتيل في 2001. وتعهدت الحكومة الإنتقالية الحالية، الذي تولت المنصب رسميا منذ 17يوليو 2003، مع العديد من رؤوس القوّات الثائرة، على إدارة البلد وإعادة بنائه، بهدف إجراء الإنتخابات "الحرة" في 2005.

حتى خلال فترة الحرب الأهلية، ظلت رواندا وأوغندا تعملان على إشعال النزاعات العرقية. ففي المحافظة الشمالية الشرقية لإتوري، حيث قتل منذ 1999، أكثر من 50,000 شخص، وقد سلبت كل من رواندا وأوغندا مصادر المنطقة وخاضت حربا توكيلية ضد بعضها البعض. في هذه الأثناء، لم يكن يتجاوز موظفو الأمم المتحدة على عشر مراقبين في المنطقة، للإشراف على مراقبة السكان البالغ عددهم حوالي 4.2 مليون شخص. في النهاية، دخلت قوات فرنسية غير كافية لحفظ السلام، واستعادت النظام بشكل مؤقت. ولا يجد المراقب عناء في البحث عن الحافز وراء تورط كل من رواندا وأوغندا في النزاع الداخلي لكونغو الديمقراطية. فرواندا بلد فقير وأوغندا ليست غنية بشكل كافٍ. من الناحية الأخرى، جمهورية كونغو بلد غني بالمصادر الواسعة وبمناطقه الكبيرة القابلة للتطوير. واستغلت كل من رواندا وأوغندا مناسبة الحرب الأهلية للدخول إلى جمهورية الكونغو وتهريب المصادر والثروة. وهذا ساعد في إغناء خزائنهم، وكذا في دفع ثمن المساعي العسكرية الأخرى. وبإنهاء الحرب الأهلية، جفَ ذلك المصدر من الدخل لكلا البلدين، وأوضحا أنهما سيرسلان قواتهم إلى جمهورية الكونغو ثانية "إذا تطلب أمنهم ذلك". أو بالأحرى إذا نفذت خزينتهم.

أوروبا هي الأخرى كان عندها مصالح إقتصادية في حرب جمهورية الكونغو الأهلية. حيث إن عدة مؤسسات أوروبية عملاقة لها حصص كبيرة في الكونغو، وأغلب تجارة هذه الأخيرة الخارجية مع الدول الأوربية. بالإضافة، هناك الروابط التأريخية. إذ أنه لأكثر من ثمانين سنة، ظلت جمهورية الكونغو مستعمرة بلجيكا، وكانت محل اهتمام دائم من فرنسا، لأن هناك سلسلة بلدان على امتداد وسط أفريقيا التي عندها إما مستعمرات فرنسية أو أن الفرنسية لا زالت لغتهم الأساسية. الأمر الذي دفع فرنسا لتوفير قوات حفظ سلام في محافظة إتوري.

ويبقى هناك لاعب غامض في هذه المنطقة، وهو الولايات المتحدة. إذ أنها تدخلت في الكونغو منذ الفترة التي سبقت الإستقلال من بلجيكا. رئيس رواندا، بول كاجام، شديد التأثر أيضا بواشنطن. منافس رواندا الرئيسي، أوغندا، لها علاقات ودية مع أمريكا، لكن بسبب روحها العدوانية نحو رواندا، اغتنمت الفرصة للمحاربة ضدهم، مع منحة إضافية : قيامها بذلك على أراضي جمهورية الكونغو الديمقراطية. ولأمريكا مصالح مالية أيضا في جمهورية الكونغو الديمقراطية بسبب مصادر الثروة المعدنية الضخمة التي تزخر بها خاصة ما يُعرف بـ columbite tantalite، ومشهور باسم coltan. هذا المنتج محل اهتمام اليابان أيضا وعدة دول أوربية التي تعتمد سلعها بشكل كبير على coltan. وعندما يُنقى هذا المعدن يصبح tantalum : مسحوق مقاوم للحرارة يستطيع تحمل ضغط كهربائي عالي، ويُستعمل في الحاسوب، الهاتف الخلوي، "البيجر"، المفاعل النووي وتشكيلة المنتجات الأخرى التي تعتمد على الطاقة الكهربائية. وهذا المعدن لوحده يجعل من جمهورية الكونغو الديمقراطية سوقا جذابا للقوى الخارجية، بالإضافة إلى ما يكنزه من كميات ضخمة

من الذهب، الماس والنحاس.
ويبدو أن السلام الأخير قد استقر مقامه في جمهورية الكونغو، ولو أن هناك الكثير من العقبات المحتملة في المستقبل. وهذا البلد محكوم بقبضتين ضعيفتين: الأول، الأمل في أن عدة مجموعات متنافسة التي خاضت حربا دامية وشرسرة ضد بعضها البعض، بإمكانها الجلوس الآن وتعمل لتحقيق أهداف المشتركة، الثاني، جهود حفظ السلام الجارية في بعض المناطق الأكثر توترا، وبشكل خاص في محافظة إتوري. ويخشى كثير من المراقبين من تجدد أعمال عندما تسافر القوات الدولية في 2004.
إن أولئك الذين دعوا إلى عمليات حفظ السلام واسعة النطاق في وسط أفريقيا أخطأوا التقدير. إن السلام سوف لن يتمكن من البلد، إلا بعد أن تعالج جذور المشاكل الإقتصادية، وأن ينتفع الشعب بثروات بلاده المعدنية، التي تتعرض لنهب الدول الغربية.